تفقد إيمانك

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :



دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

لما كان الإيمان بالله جل وعلا هو مفتاح الفلاح في الدارين، وطريق الجنَّة والنجاة؛ كان حقيقًا على كل مسلم أن يكون أشد تعاهدًا لإيمانه من تعاهده لكل مصالحه.. وأن يتفقد إيمانه بما يمكنه من حفظه وتجديده ثباته.. فإيمانك بالله – أخي – كنزٌ لا يُعلم بعده كنز ونعمة لا تفضلها نعمة, ومنبع كل فضل ورحمة.

فإيمانك طريق الهدى.. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن: 11].

وإيمانك نجاتك يوم يجمع الله الورى.. قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: 1-3].

وإيمانك طريقك إلى السعادة والحياة الطيبة.. ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْـرَهُمْ بِأَحْسَـنِ مَا كَـانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97].

أخي.. فإذا كانت تلك هي بعض ثمـرات الإيمـان.. وأنت أحـوج إليها في حياتك من احتياجك لكل شيء..

فالهـدى يسـدد في الحيـاة خطـاك.. ويحفظك من الضلال.. وسـعادتك حصن لك من التعب والشقاء..

ونجاتك يـوم القيامة حفظ لك من العذاب.

فحـري بك أن تنظر بين الفينة والأخـرى إلى حالك..

وأن تتأمل في حقيقة أعمالـك.. أهي تضر إيمانك وتفـرح شـيطانك أم هي عـون لك على الهدى وزيادة الإيمان؟

فكيف تتفقد إيمانك؟

شجرة الإيمان تحتاج الرعاية

أخي.. إن إيمانك بالله جلَّ وعلا شـجرة كـأطيب الشـجر إذا أهلمتها ذبلت أوراقهـا، وانكمشت أغصـانها، وقلَّت ثمارهـا، وتوقف نماؤها، بينما تعاهدك لها يصيرها من الأثمار والجمال والقوة في أحسن حـال، وكـأطيب

ما تكون الأشجار.

قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْـلُهَا ثَـابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّـمَاءِ * تُـــؤْتِي أُكُلَهَا كُـــلَّ حِينٍ بِـــإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْـــرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [إبراهيم: 34، 25].

قال العلامة عبد الرحمن السـعدي رحمه الله: «فمثَّل الله سبحانه كلمة الإيمان التي هي أطيب الكلمـــات بشـــجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميـدة: أصـــولها ثابتة مســتقرة، ونماؤها مســتمر، وثمراتها لا تـــزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غـيرهم المنـافع المتنوعة والثمرات النافعة.

وهـــذه الشـــجرة متفاوتة في قلـــوب المؤمنين تفاوتًا عظيمًا، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها.

فعلى العبد الموفق أن يســعى لمعرفتها ومعرفة أوصـــافها وأســـبابها وأصـــولها وفروعهـــا! ويجتهد في التحقيق بهـــا: علمًا وعملاً. فـــإن نصـــيبه من الخـــير والفلاح،

والسعادة العاجلة والآجلة بحسب نصيبه من هذه الشجرة» [التوضيح والبيان ص6].

فكيف تتعاهد إيمانك؟

1- كن دائم الاستشعار لمراقبة الله لك: فهو سبحانه أقرب إليك من نفسك؛ يسمع كلامك، ويبصر فعالك وأحوالك، ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾.. ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾ .. ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾.. تأمل في حال المرأة التي جاءت تشتكي إلى رسول الله من معاملة زوجها.. وقد أنزل الله في شأنها: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾.

فأنت أيضًا يسمع الله كلامك.. جهره وهمسه.. ويعلم أحوالك.. وأنفاسك ووسواسك.. ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾.

ويبصـــرك أينما كنت.. وأينما حللت.. ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُـوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصَـار**..﴾ ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**﴾.

وإن عبدًا مسـتديمًا على استشـعار هـذه الصـــفات الإلهية العظيمـــة.. مؤمنًا بعظمة الله وجلاله ليغمـــره الحيـــاء من أن يعصي اللـــه.. ويملأه الخـــوف من أن يقـــترف ما يغضب اللـــــه.. بل إن يقينه بـــــاطلاع الله عليـــــه.. ليولد في نفسه حـــــرارة إيمانية ينكمش معا وجهـــــه.. ويخفق لها قلبـــــه.. ويغض معها طرفـــه.. خشـــية أن يطلع الله على إصرار كـامن في نفسـه.. أو نية سـوء مختفية في حســـه.. فلا تـــرى إذا أخطأ إلا فزعًا للتوبـة.. وفي الحـديث الصـحيح قـال رســـــول الله ﷺ: «**اســـتح من الله كما تســـتحي من الرجل الصــــالح في قومك**».

ومراقبة الله جلَّ وعلا.. والاستدامة على تـــذكر اطلاعـــه.. وســـمعه وبصـــره وعلمه بأحوال عباده.. يخجل المـؤمن الصـادق من نفسه.. فلا يكـاد ينطق إلا بما يرضي اللـه.. ليس لأنه يخـــاف أن يســـجل عليه الملك كلامـــــه.. ولكن قبل ذلـــــك؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله يعلم قوله وســـره وجهـــره..

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

أخي الكريم: يا من تتـوق إلى الإيمـان العـالي.. ويا من تـرغب في تقوية يقينـك.. ويا من تتطلع إلى بلوغ درجة الإحسان..

تذكر أن سرَّ عباداتك كلها والتي ينمو بها إيمانك لا تـؤتي ثمارها إلا بحسب صـلابة أساسها الذي هو معرفة الله سبحانه.

فإذا عرفت أنه سـبحانه مع خلقه كلهم.. بعلمه وإطلاعه وسمعه وبصره.. يرى النملة السـوداء فـوق الحجـرة الصـماء في الليلة الظلماء.. وأنه سـبحانه مع ذلك عـال فـوق خلقـه.. وأنه سـبحانه عظيم كبـير قـاهر متعـال.. وأنه رحيم بخلقه غفـور حليم يقبل معـاذيرهم.. ويغفر ذنـوب التـائبين.. دعتك معرفتك هذه **إلى أمرين:**

الأول: هو تعظيم الله جـلَّ وعلا والخشية منه سبحانه.. وكـذلك حسن الظن به، والطمع في رحمته.

الثـاني: هو استشـعار مراقبة الله جـلَّ وعلا وأن تعبده كأنك تراه.

و**هذان الأمـران** هما أهم ثمـار معرفة

الله بأوصافه وصفاته.. وبهما لا تزال شجرة إيمانك تنمو وتزهو وتتفــرع وتتشــعب حــتى تـــرقى بك إلى درجة الإحســـان الـــتي هي أعلى مراتب الدين.

وتأمل في قـــول الله جـــلَّ وعلا: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾.. فعلى قدر علم العبد بربه تكون خشيته لــه.. فمن أيقن بــاطلاع الله عليــه.. وعلم علم اليقين بصــفاته.. ألزمه يقينه الوقــوف على حــدود اللــه.. ومراعــاة أوامــره.. والمســابقة إلى بره.

أخي.. تــذكَّر.. أنك تعبد ربًا رقيبًا لا يغفل ولا ينام.. فلا تغفل عن أمــره.. أو تظن أنك مختــفٍ عن علمــه.. فتحشر مع الــذين قــال الله فيه: ﴿**وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِـــيرًا مِمَّا تَعْمَلُـــونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

وتـــذكَّر أخي.. أن معرفة الله المقترنة بمقتضياته من خشيته والخوف منه والحيــاء من جلالـــه.. هي ما يولد في النفس حلاوة

الإيمان التي قال عنها رسـول الله ﷺ: **«ذاق حلاوة الإيمـــــان من رضي بالله ربًا وبالإســــــــــلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً»**.

وصاحب هذا الإيمان.. لا يرى إلا مستكينًا لله.. خاضعًا لحكمه.. خائفًا من الانزلاق من مخالفتـــه.. فـــإذا غلبته غفلـــة.. أو غفلته شـــهوة.. تــاب، لكن توبة الفــزع القلــق.. المـــذعور الخـــائف.. المـــدرك لعلم الله بفعلـه.. المتحسر على ذنبـه.. الـراغب في عفو ربه.. فتراه وقد أصبح بعد الذنب أرقى وأعلى في مرتبة الإيمــان.. وكل ذلــك؛ لأنه دائم الاستشعار بمراقبة الله له.

2- تفقد إيمانك بإحســان العبـادة:

فالإيمــان لا يتقــوى إلا بالعبــادة.. **وللعبادة شرطان**:

الأول: الإخلاص لله. و**الثـاني**: المتابعة لهدي نبيه ﷺ.

فبهــذين الشــرطين تصح العبـــادات والطاعات ويكون لها أثر في زيادة الإيمــان وحفظ الأعمال من الإحباط؛ فرب مســتكثر من الطاعات لم ينفعه استكثاره وتعبه؛ لأنه

إمَّا أقـدم على الطاعة بغـير نية صـادقة، أو أنه عبد الله على غــير علم واتبــاع. ولأجل هذا قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِـدٌ فَمَنْ كَـانَ يَرْجُـوا لِقَـاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلًا صَـالِحًا وَلَا يُشْـرِكْ بِعِبَـادَةِ رَبِّهِ أَحَـدًا**﴾ [الكهف: 110].

قال ابن كثـير رحمه اللـه: «وهـذان ركنا العمل المتقبـل: لابد أن يكـون خالصًـا للـه، صــوابًا على شــريعة رســول الله ﷺ، وروي مثل هـــذا عن القاضي عيــاض رحمه الله وغيره».

فأخلص – أخي – النية.. وجمل الطويـة.. واجعل عبادتك كلها وأعمالك جميعها لله وحده.. فالإخلاص من أعظم أسـباب البركة في الأعمال.. فإذا كـان العمل خالصًـا للـه، وكان على ما يريد الله سـبحانه فإنه يبـارك فيه فيثمر القليل منه الكثـير.. ولـذلك قـال رســول الله ﷺ: «**إنما الأعمـال بالنيـات وإنما لكل امـــرئ ما نــــوى**» [رواه البخاري].

فالســير ســير القلب.. ومن خلا قلبه من

النية.. لم يكن لطاعاته مزية..

أخي.. واعلم أن العبــادة لا تقتصر على شــعائر معينــة.. وإنما هي حالة يتقلب فيها العبد وفق مــراد الله ســبحانه.. يتعبــده بالصـلاة إذا حـان وقتهـا.. ويتعبـده بالنوافل في وقتها.. ويتعبده بتلاوة القـرآن والـذكر.. ويتعبـده بصـلة الـرحم والأقـارب ويتعبـده بالإنفاق.. وهكـذا يظل يتقلب في العبـادات وفق ما يريـده الله منه فليس له في نفسه حظ وإنما بغيته الله والدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ * لَا شَـرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

فمن فقه هذه الأمور نفعته أعمالــه، فقد قـال ﷺ: «**من يـرد الله به خـيرًا يفقهه في الدين**» [متفق عليه].

تفـقـد قــلبك:

فإن سلامته سلامتك.. وعافيته عافيتك.. وصــلاحه صــلاحك.. قــال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلــه.. وإذا فســدت فسد الجسد كله**

ألا وهي القلب».

أدنه من الذكر فإن فيه رقته وسلامته وقوته وطمأنينته.. قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: 28].

قال ابن القيم رحمه الله: «ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، فجلاؤه بالذكر؛ فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك؛ صدئ فإذا ذكره جلاه.

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب.

وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر» [الوابل الصيب ص80].

قال ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»**.

فذكر الله علاج قسوة القلوب.. ومادة قوتها وسكينتها.. وهو غراس الإيمان فيها.. يقول العلامة السعدي رحمه الله: «**ومن أسباب دواعي الإيمان**: الإكثار من ذكر الله في كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ

العبادة، فإن ذكر الله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغـــذيها وينميهــــا، وكلما ازداد العبد ذكرًا لله قـوي إيمانه, كما أن الإيمـان يدعو إلى كثرة الـذكر، فمن أحب الله أكـثر من ذكــره، ومحبة الله هي الإيمــان بل هي روحه» [التوضيح والبيان ص59].

وفضـــائل ذكر الله أكـــثر من أن تحصى وأكــبر من أن تحصــر، وهو أفضل وســائل النجاة يـوم القيامة كما قـال رسـول الله ﷺ: **«ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عــــذاب الله من ذكر الله عـــزَّ وجلَّ»** [رواه أحمد].

فأصـقل -أخي- قلبك بـذكر اللـه.. وأكـثر من التســبيح والاســتغفار.. واجعل أذكـــار الصباح والمسـاء وردًا يوميًا ثابتًا لا تخل بـه، فــــإن ذلك أدعى لثبــــات إيمانك وقوته وصـلابته.. واعلم أن حرصك على الأذكـار.. والـــدعاء.. والاســتعاذات النبوية هو أعظم ســلاح تقمع به الشــيطان فإنه وســواس خنَّاس.. يقهره ذكر الله.. ويقطع عليه كيده ومكره.

أكثر من هذه العبادات:

* **الصيام:** فإنه من أعظم ما تصلح به القلوب، فهو يثمر رقة القلب وغزارة الدمع.

فعن أبي أمامة قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، مرني بأمر ينفعني الله به، قال: **«عليك بالصيام، فإنه لا مثل له»** [رواه الحاكم وصححه، وانظر: صحيح الترغيب 1/413].

وهو كفارة للخطايا ورفعة للدرجات، ومن أعظم موجبات الجنة والنجاة من النار؛ لذلك فإن الحرص عليه من مقويات الإيمان وأسباب زيادته.

وقد كان ﷺ يتحرى صيام الاثنين والخميس، ويوصي بصيام ثلاثة من كل شهر.

* **قراءة القرآن:** فهي من موجبات تقوية الإيمان، وبركته؛ لأنها باب من أبواب التفكر في المعاد والتعرف على الله وشرعه، وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»** [رواه مسلم]ن وفي الحديث

قال رسول الله ﷺ: **«مثل المـؤمن الـذي يقــرأ القــرآن مثل الأترجــة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المــؤمن الذي لا يقـرأ القـرآن مثل الثمـرة لا ريح لها وطعمها حلــــــوة...»** [متفق عليه].

* **الحفاظ على الرواتب والنوافل:**

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قـال رسـول الله ﷺ: **«إن الله تعـالى قـال: من عـادى لي وليًا فقد آذنته بــالحرب، وما تقــرب إلي عبــــدي بشـــيء أحب إليَّ مما افترضــته عليــه، وما يــزال عبــدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سـمعه الـذي يسـمع بـه، وبصـره الـذي يبصر بـه، ويـده الـتي يبطش بها، ورجله الـتي يمشي بهـا، وإن ســــــألني لأعطينــــــه، ولئن استعاذني لأعيذنه»** [رواه البخاري].

* **الحـرص على المعـروف:** فـإن كل معـروف صـدقة، وقد قـال ﷺ: **«لا تحقرن من المعــروف شـــيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»** [رواه مسلم].

قــال الســعدي رحمه اللــه: «وكــذلك الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل والجـاه وأنواع المنافع، هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمــان، والجــزاء من جنس العمــل، فمن أحسن على عبــاد اللــه، وأوصل إليهم من بـره ما يقـدر عليـه، أحسن الله إليه أنواعًا من الإحسان ومن أفضلها: أن يقــوي إيمانه ورغبته في فعل الخـير، والتقـرب إلى ربـه، وإخلاص العمل له، ولذلك قـال رسـول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحـدكم حـتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» [متفق عليه].

أخــي الـكـــريم.. وهــذه القربــات لا تـؤتي ثمارها في زيـادة الإيمـان وحفظه إلا إذا حافظ المسلم على فـرائض الله وانتهى بـأوامره، أمَّا الحـرص على المسـتحبات مع إتيــان المحرمــات فهو خلاف الأصــل؛ لأن رســـول الله ﷺ يقـــول: «**ما نهيتكم عنه فانتهوا، وما أمرتكم به فـأتوا منه ما استطعتم**».

* **الحرص على مجالس الذكر:** وهي من أعظم ما يحفظ به الإيمان قـال تعـالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَــعَ

الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119].

قال ابن مسعود: «نعم المجلس, المجلس الذي تنشر فيه الحكمة، وترجى فيه الرحمة؛ مجالس الذكر».

وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه فقال: «أدنه من الذكر». وقال: «مجالس الذكر محياة العلم، وتحدث في القلب الخشوع, القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر».

قال ابن رجب: «وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة، وتحف الملائكة، ويذكر الله أهلها فيمن عنده، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنبًا، وربما بكى فيهم باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له، وهي رياض الجنة: قال النبي ﷺ: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»** قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **«مجالس الذكر»** [رواه الترمذي]».

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * * *